النقد والرواية

التلقي النقدي عند الروائي

شهادة الميلودي شغموم

منذ بدأت الكتابة، ثم النشر، سنة 1972، حاولت أن أقنع نفسي، رغم الصعوبة، بأمور ثلاثة:
أولا، قد يطول بك الوقت ليقتنع بك الناس ويتقبلوا، بشئ من التقدير، كل ما تكتب وفي انتظار هذا الوقت عليك أن تحتاط من مأزقين: مأزق أن تصبح طاووسا ينفخ ريشه ليظهر بهاءه ولكنه يعري شيئا أقبح، ومأزق نرجس الذي تأسره وتستعبده صورته!
ثانيا، قد ينتف ريشك، مبكرا جدا، ناقد عديم الذمة، أو زميل كاتب احترف الاغتيال الأدبي، في محاولة منهما، بلا معنى، لكي يمنعاك من أن تطير إلى جنبهما، فعالم الإبداع مليئ بالوحوش التي تفترس بعضها البعض. ولكن في هذا العالم كذلك ملائكة، رغم قلتهم، يشجعون ويتبنون، وقد يجعلون منك، ومنذ كتابك الأول، عبقري الزمان فيغتالونك بالحب والإطراء السابق لأوانه، وقد تكون هذه العواطف أشد فتكا من الخبث المبين!
ثالثا، إياك أن تصيبك حرفة الأدب، في هذا الزمان، فإنها مازالت تذل وتهين. اتخذ من الأدب صنعة، أي أخلص إلى روح الأدب قدر ما تستطيع، ولا تجعله مصدر رزق أو زلفى، وبعبارة أخرى ليكن الأدب لديك هواية، هواية فقط، من حيث المهنة، ولكن هواية محترفة، من حيث روح الأدب وصنعته!
فها أنت ترى أدباء كبارا، خبروا الأدب وأخلصوا له طول عمرهم، ولكن هاهم أمامك يعانون من المرض، وضيق اليد، ولا أحد يساعدهم، ومنهم من يتسول زجاجة نبيذ، أو علبة سجائر، ليخدر مخه حتى يستطيع أن ينام مثل بقية البشر، فلا تغتر ببريق اسمك في منشور ولا تضعف أمام سحر الصفات الزائدة على هويتك كما هي في دفتر الحالة المدنية: اكتب فقط ما تريد، أو ما تستطيع، واسمع، من غيرك، أو إقرأ، ما تقدر عليه ولا تضيع نفسك بين يدي الملائكة و لا الشياطين!
منذ ذلك الوقت وأنا أقسم النقاد إلى أربعة أصناف قاصدا بعض التعسف عليهم:
الصنف الأول: قرأ من النظريات، أو الإيديولوجية، أكثر بكثير من الروايات ولا يهمه من رواية، أو قصة، سوى أن يجد فيها مناسبة لتمرين أو لتأكيد شئ من النظرية أو الإيديولوجية!
الصنف الثاني: يوظف لغة واحدة، خالية مما يكفي من العلم والذوق، في قراءته لكل النصوص ولا يملك من العدة غير تلك اللغة، القديمة أو الحديثة، التي تكتب به كل ما يكتب!
الصنف الثالث: يقوم بقراءة شكلية يترصد فيها ما يعتقد أنه أخطاء وتجاوزات ولا يهتم لا بالتذوق ولا بالمعرفة ولا باللغة!
الصنف الرابع: وجداني، أو جواني، خالص لا تهمه إلا العواطف والانفعالات متخذا من حدسه، وحسه، الشخصي معيارا كونيا لا يشق له غبار!
هؤلاء هم الذين تملآ أغلبيتهم صفحات الجرائد والمجلات والكتب والكثير منهم مسكين قد أصابته حرفة الأدب أوله جيش من المريدين والأتباع، الأمر الذي يضخم خطورته، ولكن الساحة لا تخلو من نقاد قرأوا العديد من النصوص الأدبية حتى تكون لديهم ذوق أدبي خاص وأمعنوا النظر في النظريات حتى صار لهم وعيهم المعرفي المتميز وعرفوا أسرار اللغة حتى أصبحوا يميزون بين التقليد والإبداع بواسطة اللغة وخبروا الأشكال حتى تولد لديهم حس التمييز بين خلق الشكل والبناء وبين الحذلقة والتقليد السطحي للأشكال.
ليس الغرض من هذه النمذجة أن تكون وافية وأن تكون قابلة لأن أدافع عنها بالأمثلة والبراهين، فإني أعترف بأنها ذاتية جدا، وبالتالي لا تلزم أحدا غيري. وأكثر من ذلك: إنها لا ترمي نقدا للنقد ولا إساءة إلى أحد بالرغم مما قد يظهر فيها من عنف، أو سخط ، أعتذر عنهما مسبقا لكل من أحس بشئ منهما، فليست الغاية أن أسيئ إلى أحد أو أحط من قيمته!
لقد كنت، منذ بداياتي المتواضعة، ولا أزال، في حاجة إلى هذه النمذجة المبسطة، والساذجة ربما، لترتيب علاقتي بالنقد سلبا وإيجابا، سلبا لأعرف ما أتركه أو أغض الطرف عنه، وإيجابا لتحديد ما آخذه من الناقد، ما أستفيده منه، بالرغم من أني لا أغادر شيئا من السلبي أو الإيجابي بدون أن أتأمله وأفكر فيه.
وبعبارة أخرى إن كل تلك الأنواع من النقد مفيدة للكاتب على الأقل من ناحية أنها تطرح عليه بعض الأسئلة وتدفعه إلى العودة إلى عمله مراجعة وتفحصا ولكني حين أعرف طبيعة تكوين الناقد وتوجهه أستطيع أن أستفيد منه بشكل أحسن لأني أعرف مسبقا حدوده، ما قد ينفعني عنده و ما لا ينفع أو يضر. وهكذا فإني قد أعرف من الناقد، العالم بنظريات الأدب، أو الإيديولوجيا، مدى إحساسي بزمني ونوع علاقتي بطبيعة الجنس، كنجس كوني، الذي أمارس الكتابة من خلاله و لا يهمني منه الباقي ولو سفهني أو أعلا من شأني!

النقد والرواية

التلقي النقدي عند الروائي

شهادة الميلودي شغموم

وبالنسبة للنوع الثاني فإني أعتبر نفسي أمام قارئ متوسط، قارئ بين الحداثة والتقليد، وهو النوع الذي تتشكل منه، لحد الآن، غالبية القراء، في نظري، فأقيس برد فعله إن كنت أكتب لخاصة أو لعامة، أو لقارئ وسط بينهما. وأما بالنسبة للصنف الثالث فإن اهتمامه الكبير بالشكل و البناء يعيدني باستمرار إلى طرح مشكلات خلق الأشكال والبنيات ومدى تماسكها ووظيفيتها في نص من النصوص. وكذلك الأمر بالنسبة للصنف الرابع فإنه يذكرني بأن الأدب موضوعه الأساسي الوجدان الذي يعبر عن نفسه من خلال ذوق معين.

أما الصنف الخامس، الذي قد يجمع بين كل، أو جل، هذه المقاربات فإنه يسمح لي بالنظر إلى كل تلك القضايا في ترابطها وخضوعها لبعضها البعض، يغني وعيي أكثر لأنه يدفعني إلى تفكير أشمل في ما أكتب!

هذه، بطبيعة الحال، مجرد أمثلة لتبرير ذلك التقسيم الذي قمت به لأنواع النقاد فهناك نقد آخر سريع، هو النقد الصحفي، في الغالب، ونقد متمهل لا يخرج ثمرته قبل النضج الكافي. ولكل واحد من هذين النوعين فوائد كذلك. إن الأول يعرف بعملي و لا يهمني منه أي شئ آخر بينما الثاني، ومنه تتشكل الأصناف الخمسة المذكورة، يدفعني إلى التأمل والتفكير وإعادة النظر كائنا ما كان نوعه كما سبق وذكرته.

غير أن كل هذا الكلام كلام وعي، تلق واع من طرف كاتب وكأن الكاتب يصدر في كل شئ عن وعي تام. إن هناك تلق آخر يقوم على الكثير من الذاتية قد يصاحب الأول و يكيف أثره ومداه: تلقي ذوي القربى وأبناء السبيل من القراء، مثلا. وهو تلق قد يكون أثقل وأشد إيلاما رغم أن كل كاتب حقيقي يعرف، أو يتعلم، كيف يتحمله؛أقصد بالكاتب الحقيقي ذلك الذي تكون قد تمكنت منه جرثومة الكتابة، وهو غير المتهور، أو المدعي، أو المتحذلق، ثم منحته تلك الجرثومة شيئا من المناعة، أي من الإصرار على المثابرة والثقة في النفس!

وفي هذا السياق فإني لا أستطيع أن أنسى رد فعل البنت التي كانت حبي الأول. كنت في حوالي السابعة عشرة من عمري وكانت في الخامسة عشرة، طرية، يكاد يضئ لون بشرتها القمحية، بنت تسحر ببسمتها الوردية ومشيتها المتمايلة، رغم نحافتها، تحت ثقل محفظتها المدرسية. كتبت فيها قصيدة غزل لن يقدر على كتابة مثلها لا قيس و لا جميل ولا نزار قباني. فلما أكملت قراءة القصيدة على مسمعها الحاني سألتني ببرودة قائلة: ـ من أي كتاب نقلت هذه القصيدة؟ وبدل "نقلت" سمعت " سرقت"؛ كنت أعتقد أن المرأة ملهمة الشعراء وأن وراء كل رجل عظيم امرأة فاكتشفت أنها قد تكون خاصية و مدمرة!

وعلى كل حال، فإني حين أنظر إلى هذه الواقعة الآن، وبرغم كل الألم الذي تسببه لي، أجد أن حبيبتي حسنا فعلت لأنها خلصتني من أن أنضم إلى قافلة هؤلاء أشباه الشعراء الذين يملأون الساحة ويشوشون على قلة قليلة من الشعراء الحقيقيين: كانت ستكون جريمة لو بقيت أكتب الشعر.لقد كانت تلك آخر علاقة لي بما كنت أسميه شعرا.

وفي السياق ذاته أذكر بكثير من الحزن والحسرة أستاذ اللغة العربية، في السنة الثانية إعدادي، الذي طلب منا أن تكتب إنشاء حول بيت المعر الشهير" تعب كلها الحياة فلا أعجب إلا من راغب في ازدياد". بعد أسبوع صحح أوراقنا وأرجعها إلينا، أرجع أوراق الجميع إلا ورقتي أنا فلما سألته عن السبب أجابني بقوة: ـ ها هي، أنظر إليها، ولكني لن أردها إليك قبل أن تعترف لي من أي كتاب أو مجلة سرقتها!

لحمد لله أني كنت جالسا وإلا كنت تهاويت من فرط المفاجأة والإهانة بينما زملائي يملأون الفصل ضحكا وضجيجا. لا أذكر رد فعلي كاملا، أذكر فقط دمعة كبيرة، ثقيلة، جارحة، قاطعة كشفرة حلاقة تعبر ببطء شديد المسافة الفاصلة بين خدي وصدري حتى تقف عند حبل السرة. كم من الموهوبين يمكن أن يكون قد قتل في مدارسنا أمثال هذا المعلم؟ المهم أن هذه الحادثة قد أرتني شيئا من النور الخفي، نور كأنه ينطق ويقول لي: أكيد أنك مختلف عن زملائك، وهذا المعلم المسكين مكلف برعاية السواء، أي التشابه، وليس بتعهد الاختلاف!

وعندما فكرت في المغامرة بنشر مجموعتي القصصية الأولى على حسابي نهاني عن ذلك أكثر من واحد قائلا: "بدل...اشتر ثلاجة!" أو " ادفع تسبيقا في سيارة!" أو " اشتر تلفازا!" أو...والعديد ممن رآها في كتاب بعد ذلك سخر مني ورفض حتى أن يأخذ منها نسخة بالمجان، موقعة مع الإهداء من طرف الكاتب الناشر!

ولقد جمعتني الصدفة آنذاك بكاتب معروف قبلي، كان اسما شهيرا بينما كنت مجرد نكرة. التقينا بدعوة من إحدى الجمعيات أنا لتقديم مجموعتي الأولى " أشياء تتحرك"، المتواضعة

جدا بالقياس إلى ما كان ينشر حينها، والحق يقال بداية إلى نفسك، وهو لتقديم مجموعته الجديدة التي كانت قد أوغلت في التجريب. كنت معجبا بهذا الزميل بسبب جرأته وانتظامه في الكتابة. لكنه بمجرد ما جلست جنبه وقف ثائرا: ما هذا، هذا ماذا؟ وجمع أوراقه وانصرف رافضا أن أشاركه نفس المنصة. وهكذا صرت "ما هذا، هذا ماذا؟" في أول لقاء مع أول كاتب معروف و هي عبارة فهمت منها بكل سذاجة: من يكون هذا، وما موقعه وباعه في الكتابة حتى يجلس إلى جنبي!

إني حين أذكر هذه الحادثة بالكثير من المرارة أنسى دائما أنني أنا الذي بدأت الإساءة بغير قليل من الغفلة والحذلقة إذ قبل أن أجلس في المنصة كنت، وأنا أدردش مع هذا وذاك، لا أكف عن نقد هؤلاء الكتاب المعروفين الذين يمارسون الهذيان والنميمة وينشرونها كقصص معتقدين أنهم يمارسون فتحا أو ثورة في حقل الإبداع ولأن الرجل لم تسبق له معرفتي من قبل فوجئ عندما رآني جنبه وربما اعتقد أني سأكرر ما قلته في الكواليس قبلها فانتفض وغادر الجلسة: أحيانا، ونحن في البدايات، نتسرع ونتصرف كأننا من طينة ووزن كل الذين سبقونا، نكبر في أنفسنا قبل الأوان ربما لأننا لا نمتلك بعد ما يكفي من الثقة في أنفسنا، فقط، لا غير، فننشر ضعفنا على عصا العدوانية من أجل أن نثير عدوانية الآخر ونجد وسيلة للتنديد بآبائنا إذا كان في الأدب آباء!

أما المكايد من طرف بعض الزملاء في المهنة، وفي الكتابة، فينبغي أن يتوقع المرء تزايدها بحسب تزايد حضوره: وهات يا وشاية، ويا دعاية كاذبة، وقد يبادر زميل ليسحب كتابك من بين الكتب المرشحة لجائزة، أو فقط للنشر، وقد يعمل على تدمير مؤلفك من غير أن يقرأه، أو يكتفي فقط بنشر كلام من نوع"لقد انتهى وما عاد يكتب شيئا مهما منذ كتابه الأول..." وهو لم يقرأ لا الأول ولا الثاني!

ومن ذلك كذلك خيبات الأمل التي تأتي من الناشرين ولجان القراءة وبعض المشتغلة عقولهم بالسماع، والنميمة، الخ...فهل تخلو مهنة من شئ من هذا أو من مثله؟

من وسط كل هذا الدخان، والعتمة، هناك دائما نور يرشد، و يحفز، بعضه من داخل الكاتب نفسه، الكاتب الذي يعرف شغله، وبعضه من أناس، منهم زملاء، يقدرون مجهودك أو ينتهون إلى تقديره مع الوقت، وقد يبدأ حينها محيطك في الاعتزاز بك!

ولكن حذار، أكرر فقط لنفسي، وفي جميع الأحوال، من زهو الطاووس بنفسه: إن الكاتب يظل مبتدئا طول عمره حتى وهو في ذروة مجده!

لقد منحتني صورة الطاووس تلك، منذ قرأتها عند أبولينير، قدرة هامة على أن أظل داخل جلدي وألا أغرق غيري في ظلي وكذلك وقع لي، كما أسلفت، مع شخص سخيف، مريض، اسمه نرجس الذي لا يكف عن النظر إلى صورته وكأنه من هذه الصورة يتشكل كل الكون!

من ذلك أني لا أزال أذكر، باستغراب كبير، حيدر حيدر، الذي كانت قد بهرتنا في المغرب روايته "الزمن الموحش"، كان واقفا قرب محمد حمدان، بينما أنا ونبيل سليمان ممدان على السرير، قال لي وقد طلبت رأيه في مجموعة قصصي " سفر الطاعة": يا ولدي، فيها أخطاء كثيرة، ولغتك العربية ضعيفة، ركيكة، أنا صححت بعضها ولكن الباقي غير قابل للتصحيح! قال ذلك ومحمد حمدان لا يكف عن الابتسام وهو ينظر إلي بحنان وعطف كأنه يقول لي: لا تهتم!

وكيف لي ألا أهتم؟

لقد ندمت، بالطبع، على طلب رأي حيدر حيدر وقلت له محاولا أن أخفي خيبتي: ردها إلي إذن! سمعت نبيل سليمان يخفي وجهه في مخدة لأنه كان يموت من الضحك وحيدرحيدر يقول لي: لا، ليس الآن، دعني أحاول، مرة أخرى، إصلاح بقية الأخطاء ثم...ربما...

ثم مرت شهور وصدرت "سفر الطاعة" هنا بدمشق عن اتحاد الأدباء العرب": حيدر حيدر الماكر، المتهكم، الزاهد!

كان قد جاء في رحلة خاصة إلى المغرب، صحبة نبيل سليمان، وأخذناهما في زيارة، بقيادة صديقنا الشاعر محمد حمدان، وكان الوقت ثلجا وبردا حينها، فأصبنا جميعا، إثر حادثة سير، بجروح ورضوض خفيفة نسبيا إلا نبيل سليما فقد كسرت له يد ورجل، ربما لأنه قد فعل ما يستحق مثل هذه العقوبة، فاستقر عندي في البيت، مدة شهر، بينما استقر حيدر عند حمدان. ولم أجد من وسيلة لمضاعفة العقوبة في حق نبيل سليمان غير أن أجعله يقرأ أعمالي الكاملة التي كان أغلبها مخطوطا!

النقد والرواية

التلقي النقدي عند الروائي

شهادة الميلودي شغموم

قرأ " جزيرة العين" ثم " ضلع في حالة الإمكان" فلما سألته عن رأيه قال: لا أعرف، ليس لي رأي الآن! وقبلت أن يقرأ مع ذلك " الأبله والمنسية وياسمين" فلما انتهى منها قال لي: هذه رواية، رواية حقيقية، سآخذها معي إلى بيروت! قلت له متحديا: لا، خذ معك" جزيرة العين" و " ضلع في حالة الإمكان"! شتمني بطريقته اللئيمة وقال: طيب، سآخذ الثلاث!
تاه نبيل في فرنسا بعض الوقت، في محاولة خائبة لتعلم الفرنسية على كبر، قبل أن يعود محبطا إلى الشام ثم وصلني خبر صدور " الضلع والجزيرة" عن دار الحقائق، ببيروت، لقد اختار نبيل هذا العنوان لينشر في كتاب واحد كلا من " جزيرة العين" و " ضلع في حالة الإمكان"!
ثم تعرف علي المرحوم سليمان صبح، من دار ابن رشد، بتوصية من نبيل وحيدر، وفي زيارة له للمغرب أخبرني بأنه سينشر " الأبله والمنسية وياسمين" فرجوته ألا يفعل ذلك، خوفا من ألسنة النمامين، وأن يعرضها على ناشر آخر ليست بيني وبينه أية علاقة معرفة أو صداقة وبعد شهور نشرت المؤسسة العربية للدراسات والنشر روايتي " الأبله والمنسية وياسمين" ! ثم أصدرت لي دار التنوير كتابين هما ترجمتي لقيمة العلم، لهنري بوانكاري، وبحثي في "الوحدة والتعدد في الفكر العلمي الحديث".
وكتب بعض الشباب، مثل المرحوم جميل حتمل، عن"الضلع والجزيرة" ومنهم من اعتبر كاتبها سوريا نشرها باسم مستعار نظرا لغرابة اسم كاسمي رغم أنه عربي فصيح!
قد أكون أطلت وأثقلت في هذا الجانب الذاتي لكني أردت أن أقول من خلاله:
أولا، إن الكلام السابق ذكره نسبي جدا فليس في النقد كله نقاد قساة،جناة، غلاظ القلب واللسان ثم إن الكثير من كلامهم قد لا ينبغي أن يحمل على ظاهره، وبكل ما يلزم من الجد، لأنه قد تكون هناك دوافع أخرى لمثل هذا الكلام ، الذي يلبس الجد أو القسوة، وليس كل الكتاب يخضعون خضوعا أعمى لمنطق" أخوك في الحرفة عدوك" بالرغم من أن كل كاتب قد يحتاج إلى تعويدة مثل تلك التي ذكرت ليحمي نفسه ويحصنها!
ثانيا، إن ولادتي الحقيقة، ككاتب، أو على الأقل ولادتي الثانية، قد انطلقت من سوريا وبفضل كل هؤلاء السوريين الذين ذكرت بعضهم، وبعضهم فقط، فلا يعجبن أحد من فرحتي وأنا أطأ أرض سوريا لأول مرة، الأرض التي يعرف أصدقائي السوريين، وعلى رأسهم أبونا في اللاذقية، أني كنت أقول لهم " إني لا أريد أن أموت وفي نفسي شئ منها!"، ومما يزيد من هذه البهجة أنها تتم بمناسبة ذكرى كاتب سوري كبير هو عبد السلام العجيلي، فشكرا على الدعوة، وشكرا لكل من ساهم في تحقيقي لهذه الأمنية الكبيرة.